

حوار حول جدلية الصراع بين الحرية والعبودية

شخصيات المحاورة :

صونيا

سليمان

حسام

نورما

مروان

ليليان

صونيا: كم أنا سعيدة باستجابتكم لدعوتي. ستكون ليلاً غراًء قمرها بدرٌ ونسيمها أنفاس. إني أتوقع حواراً حاراً ، أتمنى أن يتوهج ولا يلهب خصوصاً أن الموضوع كما عرفتم من خلال بطاقة الدعوة يستثير الهمم ويشد العزائم لخوض غمراته.

سليمان: أنا لا أتعامل مع الحقيقة من خلال تفريعها إلى مواضيع متعددة. لها وحدة غير قابلة للتجزئة نوى جوهرها متمظهراً على مرآة متباينة فنظن أن في الأمر تعدداً وتبايناً. فالحقائق كالأعداد لا متناهية ولكن كلها تبدأ من الواحد إلى الواحد تعود.

حسام: تريد أن تقول إن من يتكلم عن الحرية والعبودية كمن يتكلم عن الجمال والتناسق كلاهما يتبع مرجعيةً واحدة بالنسبة إلى الحقيقة؟

سليمان: ألا تعلم يا صديقي أن قوانين العقل هي الميزان الوحيد الذي نزن به كلامنا سواءً تحدثنا عن الحرية أو عن الجمال. إذا ما كان هدفنا واحداً وهو الوصول إلى الحقيقة. وقوانين العقل واحدة لا تلوّن بألوان المواضيع المتعددة التي نتحدث بها فأين هي التعددية إذن؟

ليليان: لا تدخلوا من الأبواب الضيقة والحوار ما زال في بدايته، أنا كراقصة أتذوق طعم الحرية وإن خانني التوفيق في التعبير عن كنه تذوّقي إنني أرى بإحساس غريزي عندما يتحرك جسدي متناغماً مع الإيقاع الموسيقي ومع نبضات رغبات الجمهور التي ألتقطها بحدسي. أشعر أن روعي أصبحت ترفرف فوق جسدي وهي مازالت فيه أشعر بأن جسدي يتحوّك على إيقاع روعي وأنه قد غدا هو هي. عندها أفهم ما معنى الحرية وأظنّ في هذه اللحظات كل الجمهور يعي هذه الحقيقة لأن الفرحة يخطفه عن ماديّة الصالة والمآزات وكؤوس الخمرة فيتداخل كلّ شيء في كلّ شيء حتى أنني لا أعود قادرة على معرفة من يرقص لمن.

صونيا: أنا شخصياً لا أفهم هذه المعاني وكيف تتداخل ببعضها. كلّ الناس تعرف أن الإنسان مخلوق ثنائي مركب من عنصرين مختلفين الروح والجسد. والروح هي نفحة من نفس الله خالدة لأن كلّ شيء من الله خالد بخلوده. والجسد من تراب الأرض وإلى تراب الأرض يعود ولذلك هو فان متقلباً في أحواله لا يستقرّ على

قرار.

حسام: وعليك أن تكملني تسميع الدرس حتى آخر سطر منه كما علمنا أيّاه الفكر السلفي الغيبي فالجسد سجن الروح والروح دائمة الشوق إلى تكسير قضبان سجنها والإنطلاق حرّة إلى عالم يقولون عنه الأثير ولكنه في الواقع العدم ففي هذه القصة السمجة لا يوجد إلا العدم.

نورمبا الروح لا تتشوّق إلى تكسير قضبان الجسد للإنطلاق إلى أثير حرّيتها كما يدعي بعض المتصوفين المخدوعين لأنّ الروح لا تستطيع أن تمارس وعيها وعملها إلا من خلال جوارح الجسد ولأنها أيضا لا تستطيع أن تمارس تألّوها وشيطنتها إلا من خلال جوارح الجسد، فالجسد منها بمنزلة الحرف من المعنى هذه أمور أن لنا أن نعتبرها بديهيات.

سليمان: أنا أوافق نورما بلنّ الروح لا تتشوّق إلى تهديم هيكل جسدها للإنطلاق ولكنها تتشوّق إلى تشفيف ذلك الجسد عبر برامج من الرياضة المادية والنفسية ليغدو الجسد وكأنه قالب نور مجمّد تخترقه أضواء العقل وتحكمه قوانينه. عندها تفارق الروح الجسد بمعنى أنها تتحكم به وتصبح هي الفاعلة فيه والقائدة له. هذا هو التصوّف الحقيقي لا ما كان يفعله البعض من تناول المخدرات أو الدوران في الحلقات حتى الإغماء والإدّعاء أن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وأنه قد أصبح لهم تجربة مع المفارقة.

حسام: أنا عاشقٌ للجسد لئله الهيكل المقسّ الذي حلّت فيه النفس ذلك القبس من شمس الألوهة. لا يوجد في الوجود كيانٌ ماديٌّ أشرف وأجمل وأبهى من جسد الإنسان. فهو وحده حمل الأمانة الإلهية التي هي النفس العاقلة ولهذا أنا أشيح بوجهي عن أولئك الزهّاد والصوفيّين الذين ظنّوا أنهم بإحتقارهم لأجسادهم وإمعانهم في تعذيبها وإهانتها قد أصبحوا أكثر قرباً من الله شاهت وجوههم ما أجهلهم.

صونيا: أنا لا أدري ما علاقة كلّ ما تفوهتم به بموضوعنا ألا تعلمون أننا مجتمعون هنا لمناقشة موضوع الحرية.

سليمان ولكنّ ما تفوهنا به هو من صلب موضوع الحرية وصراعها الجدلي مع العبودية ألم تلحظي بأن مفارقة الروح للجسد بمعنى عدم مغادرته بل طبعه بطابعها

وتلوّ نه بألوانها وتجوهره بجوهرها هو المفهوم الصحيح لمعنى الحرية.

حسام: لو غصّ حلقي بغير الماء لعالجت غصّتي بالماء ولكن عندما أغصّ بالماء فبماذا أعالج غصّتي الواقع أنني لم أفهم وأحتاج الى الكثير من التفسيرات.

سليمان: ألم تقل يوماً بأنّ الحرية الحقيقية هي في الإنسجام مع قوانين العقل؟

حسام: وأنا لا زلت أقول ذلك وأزيد عليه بأنّ قوانين العقل هي نفسها قوانين الطبيعة ولا تضارب بين الإثنين.

سليمان: هذا ما أريد أن أقوله: إنّ الحرية هي في إمتلاكنا للحقيقة التي هي ثمرة قوانين العقل وقوانين الطبيعة وإمتلاكنا للحقيقة يجعلنا من الوجود بمثابة الروح من الجسد لا تفارقه لتتحرّر من قفصه فنحن أبناء الوجود والوجود يحيط بنا منذ الأزل وإلى الأبد ولكدنا نفارقه بمعنى أننا نلوذّه بألوان إرادتنا التي قد تجوهرت بقوانين العقل الكليّ عندها نصبح نحن أسياد وجودنا. نحن صانعي قضائنا وقدرنا نحن الذين نفيض حباً ونوراً ومعرفةً ونظاماً على جميع الموجودات العاقلة وغير العاقلة وهذه هي ذروة السعادة أن نتجوهر بالمعرفة والنور والحب فنصبح نحن المعرفة والنور والحب ونفيض على ذواتنا وعلى الآخرين.

مروان: لم أسمع لغواً في حياتي كهذا اللغو الذي أسمع اليوم. أنا أفهم معنى الحرية عندما أكدّ واجتهد فأجني الكثير من المال فأتحرّر من الفقر وأستخدم هذا المال الذي جنيته لإشباع رغباتي وإرضاء نزواتي وتحقيق أحلامي في بناء بيت كبير تحيط به حديقة غناء ويتطّاق حولي الكثير من الرجال والنساء كلهم يريد مرضاتي وتلبية طلباتي مهما كانت وتجسيد رغباتي مهما شرقت وغرّبت.

حسام: إذن أنت تفهم أنّ تحقيق حريتك هو في تحويل نفسك الى راع وتحويل الناس الى قطيع تسوقهم أينما أردت وكيفما أردت.

إنها غريزة القطيع الموجودة في المجتمعات التي تفتقر إلى الديمقراطية والعلمانية وهي تعيش تحت وطأة الفكر الديني الإكليريكي المتحكم بالأحوال الشخصية وأنظمة الحكم المطلق التي تقسّم الناس إلى أسياد وعبيد.

صونيا: أكثر الناس يستمرّون سلاسل عبوديتهم ويتلذذون بتعذيبهم لأنفسهم وتعذيب

الآخرين لهم.

سليمان: أكثر الناس يظلمون بالحرية وإذا ما أعطيت لهم "والحرية لا تعطى لأحد" خافوا منها وأنكروها ثلاث مرات قبل صياح الديك لأن الحرية مسؤولية. أن نختار أعمالنا دون ترهيب أو ترغيب. أن نتخذ قراراتنا دون إكراه أو طمع ثم نتحمل مسؤولية القرارات التي نتخذ والأعمال التي نعمل ولا نحاول أن نرميها ساعة في سلة القدر وساعة في سلة الظروف فهذا لعمرى أقصى درجات الشجاعة. الحرية أيها السادة لا يستطيع تحمل وطأتها إلا الشجعان الذين يثقون بقدرة عقولهم على إمتلاك الحقيقة والدفاع عن هذه الحقيقة والسعي لتجسيدها عملاً من لحم ودم.

حسام: هناك ظروف وأناس قد أثاروا ولا زالوا يثيرون غريزة الخوف عند الآخرين ويغذونها بالكثير من الضغوطات والخيبات حتى تضخت هذه الغريزة مثلت المرات عمّا يجب عليها أن تكون حسب قوانين الطبيعة، الأمر الذي جعل الناس تعيش حالة خوف مرضية، فهي رغم تخمتها تعيش الخوف من الجوع ورغم ثرائها تعيش حالة الخوف من الفقر ورغم إنغماسها في الموبقات تعيش حالة الخوف من الحرمان الجنسي أو ما أشبهه. غريزة الخوف، أيها السادة هي الرحم الذي تعيش فيه العبودية وتترعرع.

نورما: لا تنسى أيضا غريزة الطمع، فهي بدورها قد تضخت أو ضخمت حتى تجاوزت كل معقول فأصبح الإنسان مهما أكل لا يشبع ومهما شرب لا يرتوي ومهما تكالب على الملذات يعتبر نفسه لا زال محروماً وعند البعض مهما عبد الله فهو مقصّر ومذنب.

سليمان: لهذا قلت لكم الحرية هي في التماس لمتلاك الحقيقة وتجسدها على أرض الواقع. فانظر مثلاً إلى الذي يأكل ولا يشبع من شدة جشعه لو تمغاً في لذّة الأكل لوجدناها لذّة وهمية وليست لذّة حقيقية لأنها لذّة تنقلب إلى ضدّها فإذا أفرطنا في الأكل أصبنا بعسر الهضم فذّة الأكل سرعان ما انقلبت إلى ألم عسر الهضم. كذلك إذا ما أفرطنا في الأكل أصبنا بالسمنة والسمنة ألم لأنها تفقد جسدنا جمال تناسق أعضائه وهكذا دواليك.

نورما: لذّة المعرفة هي اللذّة الوحيدة التي لا تنقلب على نفسها فيولد ضدّها من أحشائها.

صونيا: ولهذا قال سليمان: إنّ المعرفة هي الحرّية، إنهما وجهان لحقيقة واحدة.

ليليان: هذا يعني أننا كلما زدنا معرفة كلما زدنا حرّية وكلما إقترنا من الجهالة كلما إقترنا من العبوديّة ولكن هنا أريد أن أسأل سؤالاً: هل يمكن إحتكار المعرفة كما تحتكر الوكالات الحصرية بعض السلع وتنفرد وحدها بتسويقها؟

حسام: هذا هو الفرق يا صديقتي بين الديمقراطية والتوتاليتارية فالإنسان الديمقراطي لا يدّعي إمتلاك المعرفة وحصرها بشخصه أو بحزبه أو بشريحته الإجتماعية بل يقول أنا أملك بعض المعرفة وأفتش عند الآخرين عن البعض الآخر ولذلك يجب أن أنفتح على الآخرين وأنفتح لهم عقلي وقلبي. يجب أن أحاورهم تحت مظلة قوانين العقل ولا أحاول أن أفرض عليهم آراءً جاهزةً ومسبقّةً وأترك الحقيقة تولد أو تتوالد من سيق تطوّر الحوار. أما الإنسان التوتاليتاري فهو الذي يعتنق رأياً يحاول فرضه على جميع الناس وإلا نعتهم بالمروق والعصيان والخيانة وأخذ يمارس عليهم الترهيب والترغيب أي يستعمل معهم طريقة تنمية غرائز الخوف والطمع لإلغاء عقولهم أو مصادرتها. إنّه وحده المكلف معرفة الحقيقة وفرضها واقعاً على الجميع.

صونيا: أحاول أن أستنتج من كلامكم جميعاً أن غرائز الخوف والطمع والتبعية تنمي بأساليب مصطنعة لتغو تنيماً جباراً يفترس الحرّية ويلتهمها. ولكنكم نسيتم أنّ الإنسان يخاف بطبعه فلو لم يكن هناك إلا الموت يخيفه لكفاه ذلك رعباً. وهو يطمع بطبعه كيف لا وهو يظن أن هذه الحياة المعطاة له هي فرصته الأولى والأخيرة لإشباع شهواته وإرضاء رغباته كما وأن الإنسان بطبعه أيضاً يحاول أن يفتش عمّن هو أقوى منه ليحتمي به خوفاً من تعدي الآخرين عليه.

نورما: ولكن من قال لنا: إن اللجوء إلى من هو أقوى منا يوقر لنا الحماية؟ فتجارب الحياة الواقعية أثبتت أن العكس هو ما يحصل. يلتجئ الضعيف إلى القوي طلباً للحماية، فينمي فيه القوي إحساسه بضعفه حتى يشلّ له إرادته كلياً ويحوّله إلى قطعة لحم رخوة لا عقل لها ولا إرادة يقلبها كيفما يشاء ويستغلها بما يتلاءم مع مصالحه وذلك بحجّة إعطائه الحماية وهو في الواقع لا يعطيه إلا قيود عبوديته ولذّة تعذيب النفس التي يستمرئها الضعيف ويصبر عليها بحجّة أنّها قضاؤه الذي يستحقّ لما ارتكب من آثام سألقة وقدره الذي كتب عليه أن يعيشه قبل أن يولد.

حسام: هذا يدلنا أن عقدة الإحساس بالذنب ومحاولة التكفير عنها بالتوبة والزهد ليست إلا عقدة الضعيف الخانع الذي يستمرىء جرّ قيود عبوديته على أساس أنها قدره الذي يجب أن يرضى به لينال رضى ربه عبر المؤسسات الدينية الإكليريكية فينقذ حينئذ القدر وهو مشكور كي لا ينفذ وهو ملعون مذموم لأنه سينفذ في كلّ الحالات.

ليليان: فكرة القضاء والقدر إذن هي خدعة اخترعها الأقوياء ليبرّروا مصادرتهم لحرية الضعفاء؟

سليمان: لا أحد يستطيع أن يصادر حرية أحد. الضعفاء هم الذين تنازلوا عن حريّاتهم عبر تعطيلهم لعمل عقولهم وشلّهم طوعاً لإراداتهم.

صونيا: لا تكن قاسياً على الضعيف المسكين. فمن يولد في بيت تمرّس بالعبودية ويعيش أنظمة إجتماعية سواءً في مؤسّسة العائلة أو المدرسة أو العلى تکرّس منهج العبودية كيف تطلب منه أن يتمرّس بالحرية فيصارع وحوش التبعية والخوف والطمع؟

حسام: هذا كلام صحيح فكيف نطلب من الإنسان الفرد أن يناضل من أجل حريّته وهو يعيش في أسرة يعتبر فيها الأب نفسه حاكماً مطلقاً، إرادته جزءٌ من إرادة الله وكلمته جزءٌ من الكلام الذي كتب في اللوح المحفوظ. حتى إذا ما ذهب إلى المدرسة إنتقل من سلطة الأب إلى سلطة الأستاذ بنفس المقاييس لأن الأستاذ يلقنه المعلومات ليخترنها في ذاكرته لا ليناقشها بعقله ويمعن فيها تحليلاً واستنتاجاً لأنّ أي إستنتاج جديد يتوصل إليه أيّ تلميذ ولو بالصدفة يعتبره الأساتذة بدعة وكلّ بدعة هرطقة وكلّ هرطقة ضلالٌ وكلّ ضلالٌ هو في جهنّم غضب المسؤول. حتى إذا ما ذهب الى سوق العمل يستقبل كسلعة عزّه في إرضاء سيّد عمله بالحقّ أو الباطل، خصوصاً إذا كان ربّ العمل من الذين هبطت عليهم النعمة من فانوس البتروودولار السحري دونما كدّ أو جدّ أو تطوّر أو ارتقاء.

نورماً الغريب أنّ أكثر الناس لم يلحظوا أنّ الطبيعة خصّت كلّ إنسان ببصمة يد متميزة عن ميليارات البصمات الأخرى وهذا يعني أنّ الإنسان أبدع كياناً متكاملًا مستقلاً متميزاً عن غيره، له ذاتيته الخاصة به جسداً وعقلاً وعاطفةً. لذّه عالمٌ متكاملٌ له خصوصيته كفرد، وإن كان ينتمي إلى مجتمع يتقاطع فيه بالآخرين

ويتكامل معهم وإلى إنسانية يتفاعل فيها مع غيره من أفراد المجتمعات الأخرى. أنا لا أتصور الإنسان إلا فرداً متميزاً بإرادته وعقله وأحاسيسه وتجاربه عن غيره من الأفراد ولكنّه يلتقي بالآخرين كما تلتقي النغمات الصوتية المتميزة في النغم لتشكل إيقاعاً واحداً موحداً .

سليمان: ممّا لا شك فيه أن الإنسان هو جوهرٌ واحدٌ أحاديّ في أناه وإن كان لهذه الأنا أبعادٌ يمكن تعدادها نظرياً كالآتي: البعد البيولوجي والبعد الفردي والبعد الاجتماعي والبعد الإنساني والبعد الإلهي. والعقل هو الذي يوازن بين هذه الأبعاد فيعطي لكلّ ذي حقّ حقه دون أن يسمح لأيّ بعد أن يتضخّم على حساب الأبعاد الأخرى وإلا حدث خلل سيدفع الإنسان ثمنه إنتكاساً وارتكاساً . وكلمة أحسن الإنسان الموازنة بين أبعاد أناه كملتطوّرت هذه الأنا وأرتقت لأن قانون التطوّر والإرتقاء هو أحد قوانين الطبيعة.

صونيا: ولكني ما زلت أشعر أن هناك جوانب كثيرة لا أعرفها في معنى الحرية.

سليمان: دعينا نبسّط الأمور ليسهل علينا فهمها فالحرية على صعيد الإنسان الفرد هي محاولة معرفة قوانين العقل والطبيعة والإسجام مسلكياً وعملياً مع هذه القوانين.

حسام: عدنا إلى قصّة لو غصّ حلقي بغير الماء لعالجت غصّتي بالماء إشرح يا صديقي وقمّ أمثلة وحاول أن تكون مقنعاً .

سليمان: سأعطي مثلاً شافياً في وضوحه ومنطقيته. إذا أخذنا النظافة فظاهرها نظافة الجسد والبيئة، وباطنها نظافة النفس والمجتمع أمّا الجسد فيكون نظيفاً بتطهيره من الأدران والأوساخ العالقة به عبر الإستحمام والتطيّب وإرتداء الثياب المطهّرة مع حمايته من الجراثيم التي تغزوه بسبب الجهل بقواعد السلوك الصحيح في المأكّل والمشرب وممارسة الجنس واللّهو المنافي لقوانين الطبيعة. أمّا نظافة البيئة فيكفي الإطلاع على مشاريع أحزاب الخضر في أوروبا لمعرفة كلّ شاردة وواردة في هذا الصدد.

نورمبليس المهمّ أن نعرف بلى المهمّ أن نجسّد ما نعرفه عملاً على أرض الواقع فكلنا يعرف أنّ المحافظة على الغابات حقّ عام وكلنا يساهم في تدمير الثروة الغابية والغطاء العشبيّ حتى أنّ بلادنا في عهد الإنحطاط العثماني المستبدّ كانت

ثروتها الحرجية تفوق أضعاف ما نملكه اليوم في عهد الإستقلال والعلم والدور والإنتحاح مع جميع ملاحقه.

صونيا: هذا صحيح فشواطىء بحرنا أصبحت مكبّ نفايات وجبالنا أصبحت قرعاء جرداء وأراضي الداخل أصبحت سبخة مالحة لندرة الأمطار ومدننا أصبحت عن حقّ وحقيق مدن ملح وغبار ومياه آسنة.

مروان: فهمنا شروحاتكم يا جهايزة المنطق عن نظافة الجسد والبيئة والآن نريد أن نسمع بدعكم عن نظافة النفس والمجتمع.

سليمان: نظافة النفس في الصدق والإستقامة والعفة ومحبة الآخرين أمّا نظافة المجتمع فهي في تناغم مصالح أفرادها وتطلعاتهم مع توازن شرائحه الطبقيّة والدينيّة والأنتيّة في إيقاع واحد موحد هو المصلحة العليا للمجتمع والخير العام للجميع.

ليليان: تريد أن تقول: إنّ الكذب والطمع واشتهاء مقتنيات الغير هو نوع من التلوث والقذارة.

سليمان: طبعاً وهل عندك شكّ في ذلك ألا تعلمين أنّ من يكذب بلسانه وقلمه يكون بعقله وعاطفته أشدّ كذباً ونفاقاً وأنّ من يجوّز لنفسه التعدي على حقوق الآخرين واغتصاب حرياتهم وكراماتهم هو إنسان ملوث يجب أن يخضع لعملية حجب إجتماعي.

حسام: إذا كان هذا هو معنى الحرية على سعيد الإنسان الفرد فما هو معنى الحرية على سعيد الإنسان كائناً إجتماعياً؟

سليمان: المجتمع الحرّ هو المجتمع الذي يتناغم أفرادها في سعيهم وعملهم، في أحلامهم وأمالهم في تطلعاتهم وتهويماتهم ليشكلوا مجتمعين لحن عقل جماعي يثمر سعادةً جماعيةً.

ليليان: لم يعد باقياً إلا أن نقول إنّ الإنسانية الراقية السعيدة هي الإنسانية المؤلفة من مجتمعات متناغمة منسجمة في الإنتاج والإستهلاك في الإبداع والسلوك تحت مظلة العقل الكليّ الأب، والطبيعة الكلية الأم.

سليمان: هذه هي الحقيقة التي أخفى جمالها وهم النزعات القومية الشوفينية والدكتاتورية الإستبدادية والعرقية الإستقلالية والدينية التي تحتكر مفهوم شعب الله المختلر لنفسها محوراً لآخرين إلى حالات وضالين.

نورما: كلكم يريد التناغم وكلكم يتكلم في الإنسجام والتوازن وكلكم يحلم بالإنسان النموذجي والمجتمع النموذجي. ولكن ألا تسمعون من الجهات الأربعة أصواتاً لأنين العبيد وتأوهاتهم وصلصلة قيود المستضعفين يساقون إلى أسواق الإستغلال والإستهلاك ألا تسمعون عويل النساء اللواتي يغتصبن كل يوم في الحدائق العامة ومخادع الشرف المغلقة، ألا تسمعون بكاء المظلومين الذين يفتشون عن العدالة والبطالين الذين يفتشون عن فرص عمل، ألا تسمعون ظلمات من إغتيات عقولهم وصودرت إراداتهم فغدوا مسوخاً بشرية؟

الجميع: الحرية والعقل والمسؤولية ثلاثة أقانيم في أقنوم واحد.

الجميع: أنا حرّ إذن أنا مسؤول، أنا مسؤول إذن أنا أسعى للتطوّر والإرتقاء، أنا أسعى للتطوّر إذن أنا أفتش عن المعرفة لأتحقق بها وتتحقق بي، أنا أتحقق بالمعرفة إذن أنا أنتناغم مع العقل الكلي أي مدبّر هذا الوجود وسيّده الأوحد.